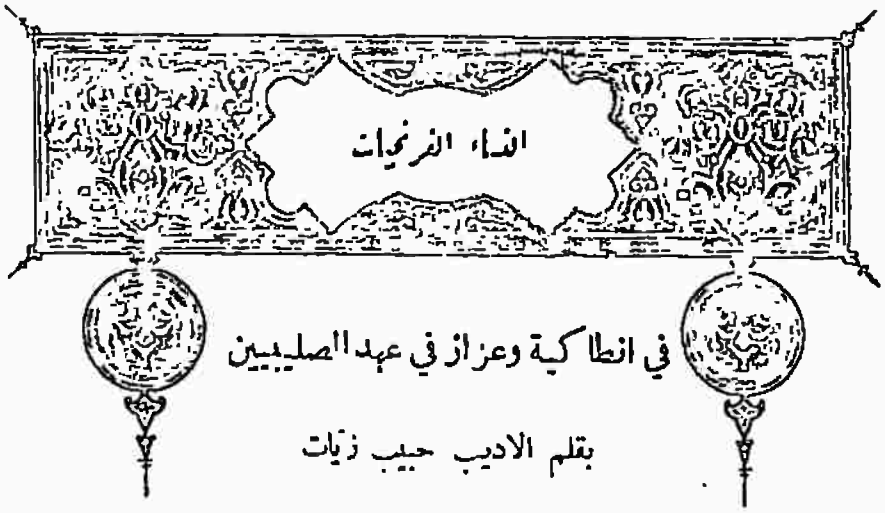

في انطاكية وعزاز في عهد الصليبيين

بقلم الاديب حبيب زيّات

من احقّ ما يؤخذ على مدوّني اخبار الصليبيين عندنا انهم لم يستقصوا منها الا الوقائع والانباء التي كانت تذهب بالاموال والدماء. فالناظر اليوم في تواريخهم لا يكاد يدري، في ما عدا الحروب والملاحم، شيئاً يُذكر من اخبار جوار الفرنج لاهل البلاد، وتأثير فريق منهم في الآخر في المعايش والمجتمعات، والابنية والمساكن، والمآكل والمشارب، والازياء والعادات، واللهجات واللغات، والصناعة والزراعة، الا بعض اشارات يسيرة وردت عَرَضاً في روايات بعض المعاصرين، نظير ابن جبير في رحلته، والامير اسامة بن منقذ في كتاب الاعتبار. ولا شكّ انه لو كانت سلمت لنا دواوين الشعراء الذين ساكنوا الصليبيين وخالطوهم في كل هذه الحقبة الطويلة، وقرُب منا متناولها، لوجدنا في بعض قصائدها ومقطعاتها نتفاً من اوصاف ذلك العصر تشفّ عما كان فيه من حضارة وفنّ ومُصطلح وزيّ.

وممن وقع الينا بعض شعره، وانفرد فيه بذكر النساء الصليبيات، ابو عبدالله محمد بن نصر القيسراني العكاوي. عرضت له حاجة في انطاكية سنة اربعين وخمسمائة للهجرة، فدخلها وطاف سككها واحياءها، وغشي بيوت لهوها ومتنزهاتها، وشاهد نساءها وقيانها؛ وشبّب بالفرنجيات منهنّ ونظم فيهنّ مقطعات رواها لهُ عماد الدين الكاتب، في القسم الثالث من كتابه «خريدة القصر»، ورقم ٣٣٢٩ من خزانة باريس. واول ما وصفهنّ به زرقة العين وطيب الرائحة وطول الشعر. قال:

لقد فتنتني فرنجيةٌ نسيم العبير بها يعبقُ
فتحي ثوبها غصن ناعمٌ وفي تاجها قمرٌ مشرقُ
وان تكُ في عينها زرقة فان سنان القنا ازرقُ[1]

يريد بالتاج ما كانت تصفّفه من غدائرها فوق رأسها . وهو ما صرّح به في ابيات لهُ يصف بها بعض نساء عزاز[2] في عهد الفرنج فيها :

وسبتني لها ذوائب شعر عقدتها تاجاً على ابراز
مَن معيني على بنات بني الاصفر غزواً ، فانني اليوم غاز[3]

وكان لهنّ تحت هذا التاج ، طُرر يصفّفنها فوق الجبين ، واصداغ يسدلنها من جانبي الخدين ، وهو قوله في الملاح المشرفات من نوافذ البيوت :

فيا عذولي فيهنّ دعْ كلفي وانظر الى الشمس هل لها طرر
وكن معيني على ذوي خُدع ان سالم القلبُ حارب النظرُ[1]

وفي قينة حسناء سمعها تغني :

فيا لك من وجهٍ كقنديل هيكل عليه من الصدغين محراب مسجدِ[1]

واكثر ما رأعنّ في عزاز حين اجتيازه بها

بعيون كالمرهفات المواضي وقدود مثل القنا المهزهاز
ونحور تقلدت بثغور ريقها ذوب سكر الاهواز

وامتازت بينهن المرأة الحُصانة الظاهرة الكشح

ذات خصر يكاد يخفى على الفا رس منه مواقع المهماز[2]

وفي هذا الخصر الزنار المعقود تحت قلب اقسى من الجلمود :

وفي ذلك الزنار تمثال فضّةٍ تنقط خديه العيون بعسجدِ[1]

وكان حين دخل انطاكية وجاس خلالها ، أعجب بقصورها الفخمة الشاهقة وابنيتها الحسنة ومنازلها المزخرفة ، وشاهد في كل شباك منها مليحة سافرة تطلّ بوجه برقعه الحياء ، فانشد فيهنّ :

وا حربا في الثغور من بلد يضحك حسناً كانه ثغرُ

---

١) خريدة القصر ، ق ٨ ٢) ويسمّيها الصليبيون «Hazarta» [المشرق]
٣) خريدة القصر ، ق ٢٦

ترى قصورًا كانها بيَع ناطقة في خلالها الصورُ
هالات طاقاتهنّ آهلة يبسم في كل هالة قمرُ
سوافر كلما شمرنّ بنا يرقهن الحياء والخفرُ
من كل وجه كأن صورته بدر ، ولكن ليله شعرُ
فهو اذا ما الدارُ حاربةٌ كان لتلك الضفائر الظفرُ[1]

ولم يقتصر على تصفح النواني في النوافذ والطرقات ، بل ألمّ من الجلهنّ بالبيع والكنائس كعادة اضرابه في ديار الاسلام من طروق الاديار والمعابد في ايام الآحاد والاعياد لاجتلاء ما فيها من الوجوه الحسان . ولم يذكر من كنائس انطاكية سوى كنيسة السيدة . قال وهي قبة شاهقة للنصارى وانشد فيها:

متى عُجتَ يا صاحِ بالسيده فسلْ عن فؤادي في الافنده
وقلبك حذره عن ان يُصا دَ ، فان بها للهوى مصيده
وجوه تباهي قناديلها ببهجة نيرانها الموقده
ترى كلّ مستضعف خصره اذا ما دعا طرفه انجده[1]

وشاهد في كنيسة اخرى لم يسمّها ، ولعلها كنيسة القيان المشهورة ، راهبة رومية حسناء قصيرة الزنار طويلة حبل العاتق متشحة بالسواد تحكي ثيابها غدائرها باللون فقال:

كم بالكنائس من مبتّلة مثل المهاة يزينها الخفرُ
من كل ساجدة لصورتها لو انصفت سجدت لها الصورُ
قديسة ، في حبل عاتقها طول ، وفي زنارها قصرُ
غرس الحياء بصحن وجنتها وردًا سقى اغصانه النظر
وتكللت عنه الجفون فلو حاورتها لاجابك الحوَر
وحكت مدارعها غدائرها فاراك ضعفي ليله قمر[2]

وكانت انطاكية قديمًا موصوفة بالنزاهة والحسن وطيب الهواء وعذوبة الماء وكثرة الفواكه وسعة الخير[3] . ولما استولى الروم والفرنج عليها ، انضمّ الى هذا الطيب جودة الخمر والشراب . فكان كل من تعذّر عليه الشرب والقصف في ما جاور من مواطن الاسلام ، يقصد انطاكية للتمتع بلذاتها . ولذلك قال

١) خريدة القصر ، ق ٨ ٢) خريدة القصر ، ف ١٤ ٣) معجم البلدان لياقوت ج ١ ص ٣٨٢

ابو العلاء المعري فيها من لزومياته :

لا يتزلنَّ بانطاكيـة ورعٌ ... كم حلَّل الدين عقداً للزنانير
جا مدام كذوب التبر غزجه ... للشاربين وجوه كالدنانير

فلا غرو ان كان القيسراني انتهز فرصة وجوده فيها لارتياد اماكن الطرب والشراب. وكان فيها وقتئذٍ ، من جملة القيان المشهورات بالحسن والاحسان ، جارية تروي الشعر العربي اسمها ماريا تغني بالدفّ خفيفة الروح في نهاية اللطف. ومن اصواتها التي تغايظ بها النصارى وتستميل قلوب المسلمين[1]

علقت بحبل من حبال محمد ... امنت به من طارق الحدثان

ولا يخفى ما في هذا البيت من التعريض والاشارة ، وهو من قصيدة للحسن ابن هانئ يمدح بها الامين بن الرشيد اولها .

لمن طال لم اشجه وشجاني ... وهاج الصبا لو هاجه لأوان

وبعد ان قضى القيسراني اطيب وقت في هذه البلدة الجامعة بين طيب الهوائين ، خرج منها وهو يتمنى لو بقي فيها اسيراً بين يدي الفرنج ليتملّى من لذاتها ونعيمها وانشد :

سرت وخلفت في ديارهم ... قلباً تمنيت انه بصرُ .
ولم ازل اغبط المقيم بها ... للقرب ، حتى غبطت من أسروا[1]

وتذكر حين انكفأ راجعاً ساعات مرّت له مع ماريا ، فقال فيها :

الا يا غزال الشعر هل انت منشدي : « علقتُ بحبل من حبال محمد ! »
ويا هل لذاك اليوم في الدهر ليلة ... تعود ولو عادت عقيماً بلا غد !
فالقاك فيها هادي الكاس حادياً ... وحبك من ساع بها ومغرّد
الا حبذا عاري المحاسن عاطل ... محلى باثواب الملاحة مرتدي . . .
وعهدي بماريا ، سقى الله عهدها ، ... بما عندها من حاجة الهائم الصدي
وفي ذلك الزنار تمثال فضة ... تنقط خديه العيون بعسجد
وقد غلب المصباح فيه على الدجى ... سنا قمر في جنح ليل مجمد . . .
فيا لي من وجه كقنديل هيكل ... عليه من الصدغين محراب مسجد
لقد اسرتني حيث لا ابتغي الفدا ... فقلْ في اسير لا يُسرّ بفدي[1]

١) خريدة القصر : ق ٨